أبوطالب عليه السلام بين التاريخ الطّبقي والتّدوين المذهبي

علي ابوالخير[1]

الملخّص والمقدّمة

نعلم أنّ التاريخ البشري كُتب وما زال يكتب، من وجهة نظر المنتصر ومن وجهة نظر السلطة الحاكمة، وهذا على المستوى العالمي، طالما خلا الإيمان والأريحية من قلوب قادة الشعوب، وفي تاريخنا الإسلامي نجد نفس الآفة، ولذلك دائماً ما يجتهد المؤرّخون المنصفون ليعدلوا ميزان الرّوايات التاريخية، وإظهار الحقيقة. هذا حدث بخطايا كبرى التاريخ الإسلامي؛ لأنّ المسلمين منذ البداية ربطوا بين روايات التاريخ والدين، ربطوا بين الزّيف المُدوّن والتقوى، بحيث يتهم من يقرأ التاريخ قراءة منصفة في دينه وإيمانه وإنسانيته.

كُتب التاريخ بصورة طبقية حادّة ومزيفة، فالإسلام جاء بالعدل والإخاء والأريحية، ثم المساواة بين البشر دون تمييز عرقي. وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في حديث مشهور:

ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتّقوى.[2]

والقرآن الكريم نصّ على تلك المساواة في آيات كثيرة متعدّدة، منها:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ.[3]

١. الدكتور الأستاذ علي محمود مصطفى أبو الخير، ولد عام ١٩٥٥م، باحث في وزارة التربية التعليم المصرية، أُحيل للتقاعد، نائب مدير مركز يافا للدّراسات والأبحاث بالقاهرة، وكاتب بجريدتي الدستور والمقال المصريتين حالياً، له: «علي عليه السلام الإمام المبين»، «في رحاب كربلاء»، «الأزهر الشريف والحوزة النجفية»، «النشأة، التاريخ، التواصل»، «الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ثورة الكلمة المقدسة»، «الكعبة والحج في الكتاب المقدّس»، «موسوعة فتاوى الوهابية ضدّ مذاهب الأمة مع آخرين»، «خطر الإستراتيجية الأمريكية في العراق»، «الأكثرية والإجماع في تاريخ الأمة»، «دراسة في الفقه السياسي»، «إيران من الثورة إلى الدولة»، «ثورة العقيدة وفلسفة العقل»، «دراسة عن فكر الدكتور حسن حنفي»، «ثقوب في عقل الأمة»، «بين النور والنار»، «كلمات في الثورة والهوية»، «دمعة قلم»، «ديوان شعر»، «الآثمون الأبرياء»، «حكايات من واقع المجتمع المصري»، «مالك الأشتر»، «سيرة ومسيرة»، «أحلى ١٨ يوماً في العمر كله»، «عن أحداث الثورة المصرية صدقاً»، «من الطفولة إلى انتفاضة الخبز (سيرة ذاتية)» aliabouelkher@hotmail.com.

٢. مسند أحمد بن حنبل، ج١٢. (وقد ورد الحديث بروايات مختلفة لا تخلّ بمعناه.)

٣. الإسراء، ٧٠.

والتكريم هو لكل أفراد الجنس البشري بغضّ النّظر عن الدين أو العرق أو الأصل. ولكن عند تدوين التّاريخ تمّ النّظر إلى الأصل العرقي والتّمييز بين الحرّ والعبد، بين القرشي والأعجمي، بين المرأة والرجل، حيث ورد في كتب التاريخ المدوَّن روايات تاريخية مذهبية وطبقية شائنة ومُشينة.

ذلك أنّ التدوين تمّ في العصر العباسي، فكانت السلطة تتحكّم في التّدوين على يد ابن‌إسحاق، ومن بعده ابن‌هشام.

وتمّ التّدوين، وأخذها المسلمون خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل، بحيث انقلب الأمر إلى عكس ما جاء الإسلام والرسولﷺ. فكان الخلفاء العباسيون يثبتون روايات أعدائهم الأمويين التي تُعلي من شأن العرب وتقلّل من شأن غير العرب، وتُعلي من شأن القرشيين وتقلّل من شأن الأنصار. هكذا صار الأمر وخُطب بذلك في الجمع والجماعات وصارت من مسلَّمات التاريخ وصدّقها الناس شيوخاً وعامةً وصار الحال حتى اليوم.

التمهيد

نكتبها عن أبي‌طالب بن عبدالمطلب، عمّ النبيﷺ الذي دافع عنه طوال حياته، بعد أن ربّاه صغيراً وكفله شاباً، لنرى كيف خالفت الرّوايات المذهبية وادّعت أنّ أبا طالب مات كافراً، وأنّ عدوّ النبيﷺ أبا سفيان مات مؤمناً.

وذلك لأنّ بداية التاريخ جاءت على يد المؤرخ الزهري، فكتب أنّ أبا سفيان والد الخليفة معاوية مات مؤمناً، وأنّ أبا طالب والد أمير المؤمنينعليه السلام مات كافراً. وتمّ تثبيت هذه الرّوايات في العصر العباسي وصارت من المقدّسات، وعاش المسلمون على النّقائض، يحبّون أبا طالب؛ لأنه دافع عن النبيﷺ ولكنهم يتّهموه بالكفر ويكرهون أبا سفيان ولكن يصفوه بالإيمان، وهي ازدواجية ارتبطت بالتّقوى المتعصّبة وبالإيمان الوحشي.

كما تمّ تدوين تاريخ طبقي، نراه واضحاً في التّمييز الطّبقي بين هند الأميرة القرشية والعبد وحشي، فزعمت الروايات أنّ هنداً صحّ إيمانها ويترضّى عنها المسلمون رغم أنهم يكرهونها ويزعمون أنّهﷺ طلب من وحشي العبد أن يبتعد عن طريقه فلا يراه ولكن قابل هنداً وسامحها.

في هذه الدّراسة نكتب عن أبي‌طالبعليه السلام حول إيمانه الحقيقي ولكن قبل ذلك نكتب عن كتابة التاريخ من منظور طبقي ومن منظور مذهبي وذلك في ثلاثة مباحث وخاتمة عبارة عن توصيات فكرية.

- المبحث الأول: التاريخ الطبقي بين هند ووحشي.
- المبحث الثاني: التدوين المذهبي، أبوطالب وأبو سفيان.
- المبحث الثالث: التاريخ الحقيقي، إيمان أبي‌طالب عليه السلام.
- خاتمة وتوصيات.

المبحث الأول: التاريخ الطبقي بين هند ووحشي

عندما كتب المؤرّخون كُتب التاريخ، جاءت كتاباتهم فيها نوع من الطبقية، يدافعون فيها عن الأمراء ضدّ الفقراء، والسّلاطين ضد الدّهماء، والأحرار ضدّ العبيد. فالتاريخ دائماً ما يكتب من وجهة نظر المنتصر، أو بالأحرى من وجهة نظر السلطة، وبنوع مُشين من الطبقية كما ذكرنا وكما نرى.

ونضرب مثلاً بذلك عن وحشي بن حرب الحبشي قاتِلُ حمزة بن عبدالمطلب عمّ النبي صلى الله عليه وآله في موقعة أُحُد بتحريض مباشر من هند بنت عتبة زوج أبي سفيان زعيم قريش.

أميرة وعبد، غنية وفقير، قاتلٌ ومحرّضة على القتل. هذا العبد المسكين كان يطلب الحرية والمال، وتلك الأميرة كانت تريد الانتقام فقط. أسلم الاثنان الأميرة والعبد بعد فتح مكة.

١. هند

تقول كتب التاريخ الطبقية أنّ النبي صلى الله عليه وآله هشّ لها وابتسم رغم مراجعاتها المتكرّرة له، ووحشي طلب منه النبي صلى الله عليه وآله عدم رؤيته رغم عفوه عنه.

هند صارت أماً لخليفة وظلّ وحشي أشبه بالعبد رغم حريته المفقودة، وشتّان ما بين الموقفين.

هند كانت عدوّة للإسلام منذ البداية، ووحشي لا شأن له. عداء هند للدّعوة تضاعف بعد غزوة بدر؛ بعد أن قُتل في ذلك اليوم أبوها عتبة وعمها شيبة بن ربيعة وابنها حنظلة وأخوها الوليد وظلّت على هذا العداء منذ بدر وحتى فتح مكة.

وكانت من اللائي خرجن مع جيش الكفار في موقعة أحُد، فكانت تُحمِّس الجيش القرشي لقتال المسلمين. ثم إنه بعد انتصار أهل مكة على المسلمين في نهايات غزوة أحد قامت بالتمثيل بالجثث المسلمة الواحدة تلو الأخرى، فكانت تُقَطِّع الآذانَ والأنوفَ، حتى وصلت إلى حمزة عمّ الرسول فبقرت بطنه، وأخرجت كبده، وفي حقدٍ شديد لاكت منه قطعة، فما استساغتها فلفظتها، وقد أثّر هذا الموقف بشدة في النبي صلى الله عليه وآله.

روى الطبري وغيره: وقف رسول الله صلى الله عليه وآله على حمزة، وقد مُثِّلَ به، فلم يرَ منظراً كان أوجع لقلبه منه، فقال:

رَحِمَكَ اللهُ أَي عَمِّ، فَلَقَدْ كُنْتَ وَصُولاً لِلرَّحِمِ، فَعُولاً لِلْخَيْرَاتِ.[٤]

[٤]. تاريخ الامم والملوك، ج٤، ص٢١٧. (وقد ورد في كتب أخرى مثل: البداية والنهاية والكامل في التاريخ)

كما خرجت هند مع المشركين في غزوة الأحزاب واستمرّت في حربها ضدّ الإسلام حتى اللحظات الأخيرة قُبَيلَ فتح مكة، حتى إنها رفضت ما طلب زوجها أبي سفيان من أهل مكة أن يدخلوا إلى بُيوتهم؛ طلباً لأمان النبيﷺ، ودعَت أهل مكة لقتل زوجها أبي سفيان عندما أَصَرّ على الخضوع ودفعتهم إلى القتال.

وبعد هذه الرحلة الطويلة من العداء الشديد، فتح رسول الله مكّة، وأقبل أهلُها من كلِّ مكان يبايعون على الإسلام ومن بعيد جاءت هند بنت عتبة وهي منتقبة متنكِّرة كي لا يعرفها أحد، تريد أن تبايع كما يبايع الناس، ولما بدأت النساء تبايع، قال النبيﷺ لهنّ:

بَايعْنَنِي عَلَى أَلاَّ تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيئاً.

فقالت هند وهي منتقبة والرسول لا يعرفها:

والله إنّك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال.

أي أنّ هناك تفصيلات كثيرة للنساء، والرجال قد بايعوا بيعة واحدة، لكن الرسول لم يلتفت إلى اعتراضها وأكمل:

وَلاَ تَسْرِقْنَ.

فوقفت هند وقالت:

يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بَنِي، فهل علي من حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟

فقال النبي:

خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ.

ثم انتبه إلى أنّ هذه التي تتكلم هي هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، فقالﷺ:

وَإِنَّكَ لَهُنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ؟

قالت: نعم، هند بنت عتبة، فاعفُ عمّا سلف، عفا الله عنك.

قال رسول الله:

وَلا تَزْنِينَ.

فقالت:

يا رسول الله وهل تزني الحرّة؟!

فقال النبي:

وَ لا تَقْتُلْنَ أَوْ لاَدَكُنَّ.

فقالت هند:

قد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً، هل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر؟! أنت قتلت آباءهم يوم بدر وتوصينا الآن بأولادهم.

فتبَسّم النبي ولم يقل شيئاً ثم قال:

وَ لا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَينَ أَيدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ.

فقالت هند:

والله إنّ إتيان البهتان لقبيح.

فقال النبيﷺ:

وَ لا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ.

فقالت هند:

والله ما جلسنا هنا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف.[٥]

هنا ندرك أنّ عفوهﷺ عن هند كان عفواً نهائياً كما هو معروف عن خلقه الكريم النّزيه، وهو الذي قالﷺ:

الإسلام يجبّ ما قبله.[٦]

أي يمحو الذنوب التي فعلها الإنسان قبل إسلامه.

نلاحظ أنّ هنداً لم يدخل الإسلام في قلبها في تلك البيعة، بدليل أنها ذكّرت النبيﷺ بالقتلى من أهلها، وقالت له صراحة:

هل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر؟!

أنت قتلت آباءهم يوم بدر، وتوصينا الآن بأولادهم، وفي نفس الوقت لم تذكر ولم يذّكرها النبيﷺ بما فعلته بكبد حمزة. وصارت هند من الطلقاء مثل زوجها وابنها معاوية، وعندما كتب

٥. السّيرة النبوية، ج٣، ص١٨٩.

٦. السّيرة النبوية، ج٣، ص١٧٧.

المؤرّخون كتبهم قالوا: إنّها أسلمت وحسن إسلامها، فهي أمّ الخليفة معاوية، الذي كُتب التاريخ أولاً بأمره وأمر من جاء بعده.

٢. وحشي

أمّا وحشي فقد ظلمته كتب التاريخ وادّعت أنّ النبيﷺ قبل إسلامه ولم يتقبّل رؤيته أو تقزّز منها، رغم أنّ وحشي عندما قتل حمزة، لم يكن يملك نفسه ولا حريته ولا قراره، نفذ القتل بتحريض الأميرة.

قال وحشي كما أخرج البخاري في صحيحه وأحمد في مسنده والبيهقي في الدلائل والطبري في تاريخه:

لما قَدِمْتُ مكَّة أُعْتِقْتُ حسب الوَعْد، ثمَّ أَقَمْتُ بها حتى دخلها النبيﷺ يوم الفتح، فهَرَبْتُ منها إلى الطائِف، فلمّا خرج وفْدُ الطائف إلى النبيﷺ لِيسْلم ضاقَتْ عَلَي المذاهب، وقُلْتُ: أَلْحُق بالشام أو اليمن أو سِواهما، فوالله لأنّي في ذلك من هَمِّي وحُزْني إذْ قال لي رَجُلٌ: وَيحَكَ إنَّ رسول الله لا يقْتُلُ أحداً من الناس يدْخُلُ في دينه، فَخَرَجْتُ حتى قَدِمْتُ على النبي في المدينة فلم يرني إلا قائِماً أمامه أشْهَدُ شهادة الحقِّ، أشْهد أنْ لا إله إلا الله، وأشْهد أنَّ محمّداً رسول الله. فلمّا رآني النبي، قال: أَوَحْشِي أنت؟! قلتُ: نعم، يا رسول الله! فقال: حَدِّثْني كيف قَتَلْتَ حمزة؟ فَحَدَّثْتُهُ فلمّا فَرَغْتُ من حديثي. قال: وَيحك غَيبْ عني وَجْهَك، اللهم هذا قَسْمي فيما أمْلك، فأنا أملكُ أنْ أعْفُوَ عنه، ولكن لا أمْلكُ أنْ أراه! قتَلَ أحبَّ الناس إلى النبي. قال: فَكُنْتُ أتنكَّبُ طريق رسول الله حيثُ كان، أي لا أُواجِهُهُ حتى لا يراني حتى قبضه الله إليه. قال: فلمّا خرجَ المُسلمون إلى مُسَيلَمة الكَذّاب صاحِبِ اليمامة خَرَجْتُ معهم وأخذْتُ حَرْبتي التي قَتَلْتُ بها حمزة فلما الْتقى الناسُ رأيتُ مُسَيلمة الكذّاب قائِماً في يده السَّيف وتهيأتُ له وهَزَزْتُ حَرْبتي حتى إذا رَضيتُ منها دَفَعْتُها عليه فَوَقَعَتْ فيه، فإنْ كُنْتُ قد قتلْتُ خير الناس بحربتي هذه وهو حَمْزة، فإني لأرْجو اللهَ أنْ يغفر لي إذْ قَتَلْتُ بها شرَّ الناس مُسيلَمَة.[٧]

[٧]. هند ووحشي إسلام طبقي، مقال في جريدة المقال المصرية، ٧/أكتوبر/٢٠١٦.

طبعاً لا نُصدّق أن النبيﷺ كان يتقزّز من رؤية وحشي، والنبيﷺ سمح عفو خاصة أمام الضعفاء من الناس، ولكننا نُصدّق رواية أخرى غير مشهورة في نفس الكتب تقول قال وحشي:

... فقلت: يا رسول الله استغفر لي. فتفل رسول اللهﷺ في الأرض ثلاثة، ودفع في صدري ثلاثة، وقال: وحشي أخرج فقاتل في سبيل الله كما قاتلت لتصدّ عن سبيل الله.

ذلك ما نقتنع به، عفو النبي واستغفاره له، وقد فعل الخير عندما قتل مسيلمة، وهند لم تفعل خيراً، ومع ذلك ظلّت سيرة الطبقية التاريخية كما دوّنها المؤرّخون، وحتى اليوم يرفض المسلمون الترضّي على وحشي ولا يعتبروه من الصحابة العدول، ولكنّهم يترضون على هند ويعتبروها صحابية جليلة،[٨] ذلك هو التاريخ الطبقي بعينه.

ونجد له أمثاله طوال تاريخ المسلمين، سادة يحكمون ويتحكمون، وعبيد يطلبون الحرية ولا يجدوها، ولا نغالي عندما نقارن بين قداسة الخلفاء والتقليل من بعض صحابة النبيﷺ، تم تعذيبهم وأوذوا في سبيل الله، من أمثال عمار بن ياسر وخبّاب بن الأرت وبلال بن رباح.

صحيح أنه لهم مكانة مميزة في ضمائر كل المسلمين، ولكنهم يضعونهم بعد الخلفاء الحاكمين، ولا نكاد نجد لأحدٍ منهم حديثاً مروياً صحيحاً.

ونقيس على ذلك التقليل من شأن الأنصار، مقابل القبيلة القرشية والتاريخ يؤكّد لنا من خلال الرؤية النقدية للروايات التاريخية، انه حدث تمييز طبقي في ثوب ديني منذ البداية وهو ما نرفضه ونكشفه ونحاول تصحيحه.

المبحث الثاني: التّدوين المذهبي أبوطالب وأبو سفيان

لم يكتف المؤرخون بنشر الفكر الطبقي في كتب التاريخ الإسلامي، والذي ذكرنا نموذجاً حول رؤية تلك الكتب من الزاوية الطبقية، بين هند المحرِّضة على قتل حمزة في موقعة أُحُد، وبين المنفِّذ العبد وحشي، فشوّهوا التاريخ برؤية مذهبية مغالية. وهنا نعطي نموذج جديد لهذا التدوين المذهبي الفج، وهو نموذج متناقض عند المقارنة بين أبي‌طالب وأبي سفيان، ونبدأ من نهاية الرجلين، كما ذكرت تلك الكتب.

نعود لروايات التاريخ عن خاتمة كلا الرجلين أبي‌طالب وأبي سفيان.

٨. هند ووحشي إسلام طبقي، مقال في جريدة المقال المصرية، ٧/أكتوبر/٢٠١٦.

١. أبوطالب

روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة، قال:

لما حضرت وفاة أبي‌طالب أتاه رسول الله فقال: «يا عمّاه! قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، فقال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: ما حمله عليه إلا جزع الموت، لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقرّ بها عينك، فأنزل الله عزّوجل كما جاء في سورة القصص الآية ٥٦: «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يهْدِي مَنْ يشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.»

أولاً: هذه الرواية عن أبي هريرة الذي أسلم بعد موت أبي‌طالب بأكثر من عشر سنوات، فكيف يروي عن حدث لم يشهد، ولم يقل عمن رواه، وأبو هريرة من مؤسسي المذهب السنة أو مذهب أهل السنة والجماعة.

ثانياً: يبدو من الروايات أنّ أبا طالب كان يحتضر في وجود النبيﷺ وحده، وأن النبي طلب من عمّه الشهادة وأبوطالب رفض فنزلت الآية. ثم روى البخاري من حديث العباس بن عبدالمطلب أنه قال: قلت للنبي ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال:

هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار.[٩]

أي أنّ النبيﷺ رد الجميل لعمه بخلوده في النار.

ثالثاً: رواية أخرى تزعم وجود آخرين عند موت أبي‌طالب، ففي السيرة النبوية لابن هشام، عن سعيد بن المسيب، قال:

لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبيﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي: أي عم! قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملّة عبد المطلب، فقال النبي: لأستغفرن لك ما لم أُنه

٩. السيرة النبويّة، ج١١٢.

عنك. فنزلت الآيتين: «مَا كَانَ لِلنَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَينَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِياهُ فَلَمَّا تَبَينَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ.

من سورة التوبة[10]، كما لو كان الجدال مستعر، حول إيمانه وكفره عند موته، وانحاز أبوطالب لقومه فمات كافراً.

المدهش أنهم زعموا بأنّ آية استغفار إبراهيم لأبيه نزلت في أبي‌طالب، دون أن يدركوا أن الآية في سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من القرآن، أي بعد وفاة أبي‌طالب بأكثر من عشر سنوات. كما أنّ والد النبي إبراهيم كان كافراً عدواً لله صلباً متعصّباً ضدّ ابنه النبي إبراهيم ولكن أبا طالب لم يكن عدواً للنبيﷺ، بل كان حامياً وحارساً ومربياً للنبي والدعوة حتى آخر يوم في عمره، فلا يمكن مقارنته بأبي إبراهيم.

والحقيقة هي ما رواه ابن‌الأثير الجزري في كتابه أُسد الغابة في معرفة الصحابة، قال: حضر النبيﷺ وفاة عمه أبي‌طالب، فمسح جبينه أربع مرات، ثم خاطبه بقوله:

يا عمّ، ربيت صغيراً، وكفلت يتيماً، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً.

إنّ هذا يتّفق مع الدعوة وخلق النبيﷺ، وأبوطالب شاهد معجزات النبي طفلاً، عندما سافر معه في رحلة الشام وقابل بحيرا الرّاهب، الذي أخبر أبا طالب أنّ محمّداً سيكون نبياً، فهل يعقل أن يسانده كلّ تلك المساندة ضد قومه، ويتقبّل الحصار الإقتصادي في شعب بني هاشم الذي قاده ابوسفيان وغيره لمدّة ثلاث سنوات وهو كافر.

والنبيﷺ لم يأمر زوج عمه فاطمة بنت أسد أن تُطلق من عصمة زوجها بحجة كفره، وفاطمة بنت أسد أسلمت مبكراً، قيل أسلمت بعد عشرة أشخاص، أي كانت المؤمنة الحادية عشرة، طبعاً لم ينس المدافعون عن كفر أبي‌طالب أن قالوا لم يكن تحريم المؤمنة على زوجها الكافر قد نزل، وهو تهافت نراه ركيكاً، ومما روي في تاريخ دمشق لابن عساكر أنّ أبا طالب رأى النبي وعلياً يصلّيان، وعلي عن يمينه، فقال لابنه جعفر:

صل جناح ابن‌عمك، وصل عن يساره.[11]

[10]. التوبة: ١١٣ـ١١٤.

[11]. تاريخ دمشق، ج٦، ص١١٧.

كان ذلك في بداية الدعوة، كما كتب شعراً في مدح النبي الأعظمﷺ، وكثير غيره أعرضنا عنه اختصاراً لحيز المقال في سيرة أبي‌طالب، فهل من يرى معجزات النبيﷺ قبل البعثة ويحميه ويدافع عنه وينصره لآخر لحظات حياته يكون مصيره الكفر؟! لا يتّفق هذا مع الدين أو العقل أو الفهم، ولكن هناك سلوك أموي وهّابي استبدادي بامتياز يتّهم أبا طالب بالكفر، وهو من نرفضه ونعلن أنّ أبا طالب مات مؤمناً وهو مثل مؤمن آل فرعون في السلوك والإيمان والمحبة والتقوى.

٢. أبو سفيان

ظلّ ابوسفيان عدواً للدعوة الإسلامية ٢١ عاماً متتالية، شنّ حصاراً اقتصادياً لمدّة ثلاث سنوات في شعب بني هاشم، وعندما تأسست الدولة في المدينة المنورة لم يترك حرباً لم يقودها، وكان رأس التحالف الخليجي المبكر في حرب الأحزاب، ولم يسلم إلا مرغماً، ولكنه في النهاية مسلم، باللسان أو بالقلب، هذا أمر متروك لله جل شأنه.

ولقد حاول المؤرخون الأوائل تجميل سيرته، فقالوا إنه فقد عينه في موقعه حنين، رغم أنه القائل عندما انهزم المسلمون في البداية:

لن تصل هزيمتهم دون البحر.

أو

الآن بطل السحر.

وزعم المؤرخون أنه فقد عينه الأخرى في موقعة اليرموك.[١٢] ولكنها روايات لا تصل لصحة روايات أخرى تقول العكس.

جاء في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير:

> فبعد تولي الخليفة الأموي عثمان بن عفان ذهب ابوسفيان ووقف على قبر حمزة بن عبدالمطلب وقال شامتاً بعد أن ركل قبره برجله: «ذق عقق» (أي ذق نتيجة ما قدمت يداك)، ثم قال: «يا أبا عمارة إنّ الذي نازعناكم عليه بالأمس صار بيد صبياننا»، أي أنه فرح بوصول أموي للحكم، وصارت الخلافة لصبيانه فورث ميراث النبوة، وهو قول عنيف يتفق مع عداوة أبي سفيان للدعوة حتى النهاية.

١٢. الكامل في التّاريخ، ج٨، ص٥٩.

وقال ابن‌عساكر في تاريخ دمشق:

لما ولّى عمر بن الخطاب معاوية الشام، خرج معه بأبي سفيان بن حرب، فوجه معاوية مع أبي سفيان إلى عمر بكتاب ومال، فدفع إلى عمر الكتاب وحبس المال (أي أخفاه، أي سرقه) فأخذ عمر خاتمه وأرسله لهند زوجه فأرسلت المال.[١٣]

أي أنّ أبا سفيان سرق المال واستحلّه، وهو نفس المال الذي ردّه عثمان عليه، فكان أحد أسباب الثورة، ولكن في النهاية صار أعداء الدين هم خلفاء وقادة وسلاطين الدين.

وقام معاوية بعملية تشويه وتزوير تاريخي غير معهود، فجعل رجالاً يضعون الأحاديث في فضائله وفضائل الأمويين والخلفاء وجعل شتم علي بن أبي‌طالب سُنّة من سُنن العبادة في خطب الجمعة ومن الطبيعي أن يقولوا أنّ والد علي مات كافراً وأبو سفيان مات مؤمناً. ولكن أبا طالب مات مؤمناً موحداً.

وعندما وصل العباسيون للحكم واختلفوا وصارعوا وقتلوا الطالبيين، كان من مصلحتهم ترك روايات كفر أبي‌طالب تنتشر ووضعوا في فضائل العباس ابن‌عبد المطلب.

ثم أخذ الخلف عن السّلف وكتب المؤرخون وخطب الخطباء، واستقبل المسلمون الطيبون هذا الأمر على أنه ضمن ضرورات الإيمان، وعندما يحاول أحد تصحيح التاريخ يتهم في عرضه قبل دينه، ويسلبوه دنياه قبل آخرته، المسلمون يشمون رائحة عطر تنبعث من إناء مذهبي فارغ.

المبحث الثالث: التاريخ الحقيقي إيمان أبي‌طالب

إنّ الحديث عن إيمان أبي‌طالب عندنا، هو من قبيل تأكيد المؤكّد وتأصيل المؤصّل، أو تعريف الماء بالماء؛ لأنّ إيمان أبي‌طالب لا يقبل الشكّ، وكما قيل:

لولا دفاع أبي‌طالب وسيف علي ومال خديجة ما قام للدين قائمة.[١٤]

لقد نال أبوطالب شرفَ حماية الدعوة الإسلامية، بعد أن تشرّف بكفالة رائدها محمّدﷺ يتيماً ويافعاً، ثم نبياً مرسلاً من ربّ العالمين إلى البشرية جمعاء.[١٥]

١٣. أبوطالب وأبو سفيان ضدّان لا يجتمعان، جريدة المقال المصرية، ٩/فبراير/٢٠١٦.

١٤. لا نذكر قائل العبارة، ولكنّنا سمعناها وحفظناها طوال أعمارنا، وهي مقولة صادقة.

١٥. موقع عربي مقالات http://qadatona.org.

وعلى الرّغم من ذلك كلّه، فقد ذهب كثيرون إلى أنه مات كافراً وأنه لم يؤمن برسالة السماء أبداً. وتذهب طائفة أخرى إلى أنه عاش جانباً من حياته حنيفياً دون الإيمان بالإسلام المحمّدي، بينما يقول آخرون إنه عاش بقية حياته منذ عرف الإسلام على يد رسول اللهﷺ مضحّياً مجاهداً، بما يتجاوز تضحية وجهاد أكثر المسلمين.[١٦]

واعتمد هؤلاء ـ أي الذين قالوا بكفره ـ على بعض الأحاديث المروية التي لا يمكنها الوقوف على قدمَيها أمام التحقيق العلمي والتثبّت الصحيح. وتصدّى كثيرون للدفاع عن أبي‌طالب وإثبات إسلامه، حيث ساقهم هذا المنهج، منهج الدقة والموضوعية، إلى الجزم بإيمان شيخ الأبطح وثباته على عقيدته واندفاعه نحو تأييد ابن‌أخيهﷺ بدافع العقيدة والإسلام، لا بدافع العصبية القبلية كما يحلو لبعضٍ أن يفسّر به ذلك التأييد.[١٧]

١. سيرة أبي‌طالب

هو أبوطالب عمّ رسول اللهﷺ، ووالد الإمام أمير المؤمنين عليعليه السلام وجعفر الطيار الشهيدعليه السلام وطالب وعقيل وأبوه هو عبدالمطلب جدّ النبيﷺ لأبيه، فهو ابن‌عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف.

ووالدة أبي‌طالب بن عبدالمطلب كانت أيضاً والدة عبدالله والد النبيﷺ، فأبوطالب وعبد الله والزبير هم فقط الإخوة من الأم والأب من بين أبناء عبدالمطلب.

الاسم المترجم له: عبد مناف، وقيل عمران، وقيل شيبة، وألقابه كثيرة، منها: شيخ الأبطح، وسيد البطحاء، ورئيس مكة، وكنيته: أبوطالب.[١٨]

وقد وُلد أبوطالب في مكة قبل ولادة رسول اللهﷺ بخمس وثلاثين سنة، أي في سنة ٥٣٥ للميلاد، في حجر والده عبدالمطلب.

وعبد المطلب أو شيبة الحمد ـ كما كان يلقّب ـ معروف بعلمه وحلمه وحكمته، ولقد كان مفزع قريش في النوائب، وملجأها في الأمور، فهو حكيم قريش وحليمها وحاكمها وشريفها وسيدها.

١٦. شيخ الأبطح، ص٢٠٩.

١٧. مقدّمة المحقّق الشيخ محمّد حسن آل ياسين لرسالة محمّد بن محمّد بن النعمان، بتصرّف من صفحات الكتاب.

١٨. شيخ الأبطح، ص١٧.

ولقد أفصح التاريخُ عن بلوغه الغاية في الحكمة وصفاء النفس، ولذا رفض عبادة الأصنام، فوحّد الله سبحانه وتعالى،[19] ولمعرفة تفاصيل سيرة عبدالمطلب يمكن للباحث والمتتبع أن يرجع إلى كتاب السيرة الحلبية، أو كتاب بلوغ الأرب للآلوسي، والسيرة النبوية لابن إسحاق، وطبقات ابن‌سعد، وغيرها، رغم رواياتها المتضاربة المتناقضة في بعض الروايات.

فعند هذا الأب نشأ أبوطالب، وتربّى على الفضائل والمكارم والتوحيد، بل ورث –دون إخوته– فضل ومقام ومركز أبيه وشخصيته.

ومن لطائف الدّهر أنّ أبا طالب لم يكن ثرياً ولا غنياً، بل كان فقيراً ولا مال له، علماً أنّ المال كان عصب الرياسة وشرطها الضروري. ولكنّ أبا طالب استطاع بمواهبه وأخلاقه وفضائله أن يتجاوز هذا الشرط، فيتملك الجاه ويستوي على النفوس والمقام الكريم.

وينقل صاحبُ كتاب (شيخ الأبطح أبوطالب) عبارات للمؤرّخين، مثل قولهم:

> كان أبوطالب حاكم قريش وسيدها ومرجعها في الملمّات، وإنّ السّقاية كانت له، وإنّ الرّفادة كانت له بعد أبيه، وإنّه سنّ القسامة في الجاهلية، وحرّم الخمر على نفسه.[20]

فأبوطالب ـ إذن ـ عمّ النبيﷺ، وحاضنه وكافله قبل الإسلام، ولقد ذُكر أنه لمّا ظهرت إمارة وفاة عبدالمطلب قال لأولاده:

> من يكفل محمّداً؟

قالوا:

> هو أكيس منّا، فقل له يختار لنفسه.

فقال عبدالمطلب:

> يا محمّد، جدّك على جناح السفر إلى القيامة، أيّ عمومتك وعماتك تريد أن يكفلك؟

فنظرﷺ في وجوههم، وزحف إلى عند أبي‌طالب. فقال عبدالمطلب:

> يا أبا طالب، إني قد عرفت ديانتك وأمانتك، فكن له كما كنتُ له.

[19]. شيخ الأبطح، ص۱۹.

[20]. شيخ الأبطح، ص۲۳.

وتضيف فاطمة بنت أسدعليها السلام صاحبة الرواية، فتقول:

فلمّا توفي أخذه أبوطالب، وكنت أخدمه وكان يدعوني الأم.[٢١]

٢. أبوطالب المؤمن الخفي

حاول الكثيرون إثبات إسلام أبيطالب وإيمانه برسول اللهصلى الله عليه وآله بعدّة وسائل، وكان من بينها اختيار أقوال وأبيات من الشعر منسوبة إليه في مواقف عديدة و تثبت هذا القول بالبرهان. كيف لا وإقرار العقلاء على أنفسهم حجّة، وجرياً على سيرتهم. سوف نحاول اقتباس بعض الأقوال ثم الأبيات الشعرية مع ذكر مناسباتها، لنكتشف مع هؤلاء حقيقة ليست بحاجة إلى اكتشاف.

أ) فمن أقواله

عندما أراد النبيصلى الله عليه وآله إعلان الدعوة وإظهار أمر الإسلام، جاء إلى العباس يطلب منه النصرة والشدّة، فنصحه بأبيطالب، فذهبا إليه وكان ردّه:

> اخرج، فإنّك الرّفيع كعباً والمنيع حزباً والأعلى أباً. والله لا يسلقك لسان إلاّ سَلَقَتْهُ ألسن حداد، واجْتَذَبَتْهُ سيوف حداد، والله لتذلنّ لك العرب ذلّ البهم لحاضنها! ولقد كان أبي يقرأ الكُتب جميعاً، ولقد قال: إنّ من صلبي نبياً، لوددت أني أدركت ذلك الزمان، فآمنت به، فمن أدركه من ولدي فليؤمن به.

وعند الإعلان وأمام الملأ قال للنبيصلى الله عليه وآله:

> قم يا سيدي وتكلّم بما تحب، وبلّغ رسالة ربّك، فأنت الصادق الصدّيق.

وفي جوابه لابنه الإمام عليعليه السلام حين قال له:

> يا أبتِ! آمنتُ بالله وبرسول الله، وصدّقتُه بما جاء به وصلّيت معه لله واتبعته. قال أبوطالب: أما إنه لا يدعوك إلاّ إلى خير، فالزمه.[٢٢]

ولعلّ أهمّ مقالة تدلّ على اهتمامه بحماية النبيصلى الله عليه وآله والإسلام، بل على إسلامه وإيمانه، ما ورد في وصيته، حين قال:

٢١. فاطمة بنت أسد، ص١٨.

٢٢. أبوطالب مؤمن قريش، ص١٤٥ و١٤٨ و١٥٣ نقلاً عن عدّة مصادر كالطبري والإصابة والسيرة النبوية والحلبية وغيرهاكثير.

يا معشر قريش! وإني أوصيكم بتعظيم هذه البَنية (الكعبة)، فإن فيها مرضاة للرب وقواماً للمعاش وثباتاً للوطأة... صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإنّ صلة الرّحم منسأة في الأجل، وزيادة في العدد ... واتركوا البغي والعقوق، ففيهما هلكت القرون قبلكم ... أجيبوا الدّاعي واعطوا السّائل، فإنّ فيهما شرف الحياة والممات ... وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة، فإنّ فيهما محبّة في الخاص ومكرمة في العام ... وإني أوصيكم بمحمّد خيراً، فإنّه الأمين في قريش والصدّيق في العرب وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ... وقد جاءنا بأمرٍ قَبِله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن ... وأيم الله، كأني أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس، وقد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها ... دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاةً ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحدٌ سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد، ولو كان لنفسي مدة وفي أجلي تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدافعت عنه الدواهي.[۲۳]

لا يوجد أصرح من هذا إقراراً بالتوحيد والنبوة؟! خصوصاً في قوله: «لا يسلك سبيله أحد إلاّ رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلاّ سعد»، وإن كان هو لم يظهر كل ذلك علناً في حياته، فقد ذكر في هذه الوصية أنّ أمر النبيﷺ قد قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن!

ب) ومن شعره

من ذلك قوله عن ولدَيه:

إنّ عَلياً وجَعْفراً ثِقَتي ... عِنْد مُلِمّ الزّمَان والـنُوَبِ
لا تَخْذُلا وانْصُرا ابنعَمّكُما ... أخِي لأمّي من بَيْنَهم وأبي
واللهِ لا أخْذُل النّبيّ ولا ... يَخْـذُلُه مِن بَنِيّ ذُو حَسَب

۲۳. أبوطالب مؤمن قريش، ص۲۱۰ و۲۱۱ نقلاً عن السّيرة النبوية والحلبية وذكرها مع كامل الوصيّة صاحب أعيان الشيعة السيدمحسن الأمين في موسوعته.

وهنا لا بدّ من الالتفات إلى أنّ أبا طالب قد ذكر علياً وجعفراً فقط من بين أبنائه، والسرّ أنهما وحدهما كانا قد أسلما من بين أولاده حتى ذلك الحين، كما نرى أنه اعتراف منه صريح وإقرار بالنبوة، بقوله:

لا أخذل النبي.

وقوله يهتف لأخيه حمزة:

فَصَبراً أبَا يَعْلَى عَلَى دِينِ أَحْمَدٍ ... وكُنْ مُظْهِراً لِلدِّينِ وُفِّقْتَ صَابراً
نَبيٌّ أتى بِالحَقِّ مِنْ عِندِ رَبِّه ... بِصِدقٍ وَعَزمٍ لا تَكُنْ حَمْزَ كافِراً
فَقَدْ سَرَّنِي إذْ قُلْتَ لَبَّيكَ مُؤمِناً ... فَكُنْ لِرسُولِ اللهِ فِي اللهِ نَاصِراً
ونَادِ قُرَيْشاً بالَّذِي قَدْ أَتَيْتَهُ ... جِهاراً وَقُلْ مَا كَانَ أحمدُ سَاحِراً

وهنا اعتراف آخر أصرح بإسلامه، ويظهر ذلك جلياً في قوله:

على دين أحمد، وكن مظهراً للدين.

ونهيه لحمزة:

ولا تكن حمز كافراً، وسروره بإسلام حمزة وإيمانه.

ثمّ في قوله: «لرسول الله» اعتراف آخر وإقرار بالرسول والرسالة، وكذلك نفي السحر عنه.

وعندما اشتدّ الصراع مع قريش، وثبت النبيﷺ على موقفه، ورفض أبوطالب تسليم النبيﷺ لقريش، قال له أبوطالب:

اذهب ـ يا ابن أخي ـ فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

ثم أنشد يقول:

وَاللَهِ لَن يَصِلوا إِلَيكَ بِجَمعِهِم ... حَتّى أُوَسَّدَ في التُرابِ دَفينا
فَاِصدَع بِأَمرِكَ ما عَلَيكَ غَضاضَةٌ ... وَاِبشِر بِذاكَ وَقَرَّ مِنهُ عُيونا
وَدَعَوتَني وَزَعَمتَ أَنَّكَ ناصِحٌ ... وَلَقَد صَدَقتَ وَكُنتَ ثَمَّ أَمينا
ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمّد ... منْ خير أديان البريةِ دينا[٢٤]

وفي البيت الأخير أجلى البراهين على إقراره بدين محمّدﷺ.

٢٤. أبوطالب مؤمن قريش، ص١١٦ نقلا عن عدّة مصادر خصوصاً مصادر أهل السنة.

وليس أصرح من كلّ ذاك إلاّ ما بعثه من أبيات إلى ملك الحبشة النجاشي وهو يدعوه فيها إلى الإسلام، ويشكره على حسن ضيافته لابنه جعفر الطيار وسائر المهاجرين، حيث يقول:

أتعلم ملك الحبش أنّ محمّداً نبيّ كموسى والمسيح ابن‌مريم؟
أتى بالهدى مثل الذي أتيا به فكلّ بأمر الله يهدي ويعصم
وإنّكم تتلونه في كتابكم بصدق حديث لا حديث الترجّم
فلا تجعلوا لله ندّاً وأسلموا فإنّ طريق الحقّ ليس بمظلم
وإنّك ما تأتيكَ منّا عصابة لقصدك إلاّ أرجعوا بالتكرّم[٢٥]

ممّا سبق وغيره كثير، يعرف صدق ولاء أبي‌طالب ومحبّته له ونصرته إياه، حتى في أحلك الظروف وأخطر المواقف.

يقول الشيخ المفيد في هذا الصدد:

وذلك ظاهر معروف، لا يدفعه إلاّ جاهل، ولا يجحده إلاّ بَهَّات معاند، وفي معناه يقول أبوطالب في اللامية السّائرة المعروفة:

لعمري لقد كلّفت وجداً بأحمدٍ وأحببته حبّ الحبيب المواصلِ
وجدت بنفسي دونه وحميته ودارأت عنه بالذّرى والكلاكلِ
فما زال في الدُّنيا جمالاً لأهلها وشيناً لمن عادى وزين المحافلِ
حليماً رشيداً حازماً غير طائش يوالي إلهَ الخلق ليس بماحِلِ
فأيّـــده ربُّ العبـــاد بنصـــرة وأظهـــــر ديناً حقّـه غير باطلِ

ويعلّق الشيخ المفيد بقوله: ومن تأمّل هذا المدح عرف منه صدق ولاء صاحبه لرسول الله ﷺ، واعترافه بنبوته، وإقراره بحقّه فيما أتى به، إذ لا فرق بين أن يقول: محمّد نبي صادق وما دعا إليه حق صحيح واجب، وبين قوله:

فأيّده رب العباد بنصرة وأظهر ديناً حقّه غير باطل

وفي هذا البيت إقرار أيضاً بالتوحيد، واعتراف للنبي ﷺ بالنبوة، وفي الذي قبله مثل ذلك.[٢٦]

٢٥. أبوطالب مؤمن قريش، ص١٨٣ عن عدّة مصادر ومراجع.

٢٦. رسالة في إيمان أبي‌طالب، ص٥ وقد نقل القصيدة عن عدّة مراجع ومصادر مهمة.

ج) روايات أخرى تؤكّد إيمان أبي‌طالب

إنّ إثبات إسلام أبي‌طالب وإيمانه لا يحتاج إلى كثير بيان وعناء، لكثرة ما ورد تلميحاً وتصريحاً في ذلك. ولكن ننقل بالنص أيضاً ما ذكره الشيخ المفيد المحقق في ذلك، حيث عقّب على كلام طويل عن أبي‌طالب وابنه علي. قال:

وممّا يؤيد ما ذكرناه من إيمان أبي‌طالب ويزيده بياناً، أنه لما قُبض أتى أميرُ المؤمنين عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وآله، فآذنه بموته، فتوجّع توجعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً.

ثم قال: امض يا علي، فتولّ غسله وتكفينه وتحنيطه، فإذا رفعته على سريره فأعلمني.

ففعل ذلك أميرُ المؤمنين عليه السلام، فلمّا رفعه على السّرير اعترضه النبي صلى الله عليه وآله، فرقّ له وقال: وصلتك رحم، وجزيت خيراً، فلقد ربّيت وكفلت صغيراً، وآزرت ونصرت كبيراً.

ثمّ أقبل على الناس، فقال صلى الله عليه وآله: أما والله لأشفعنّ لعمي شفاعة يتعجّب منها أهل الثّقلين.

يضيف الشيخ المفيد بعد نقله الرواية، فيقول:

وفي هذا الحديث دليلان على إيمان أبي‌طالب عليه السلام أحدهما: أمرُ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بغسله وتكفينه دون الحاضرين من أولاده، إذ كان من حضر منهم سوى أمير المؤمنين عليه السلام، إذ ذاك على الجاهلية، لأنّ جعفراً، كان يومئذٍ ببلاد الحبشة.

وفي حكمه صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام بأمره إياه بإجراء أحكام المسلمين عليه من الغسل والتطهير والتحنيط والتكفين والمواراة، شاهدٌ صدق في إيمانه على ما بيناه والدّليل الآخر: دعاءه صلى الله عليه وآله بالخيرات ووعد أمّته فيه بالشفاعة إلى الله وإتباعه بالثناء والحمد والدعاء.

ولو كان أبوطالب مات كافراً لما وسع رسول الله صلى الله عليه وآله الثناء عليه بعد الموت، والدعاء له بشيء من الخير. قال تعالى:

وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ.[٢٧]

٢٧. التوبة، ٨٤.

وإذا كان الأمر على ما وصفناه ثبت أنّ أبا طالب‌عليه‌السلام مات مؤمناً، بدلالة فعله ومقاله وفعل نبي الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله به ومقاله حسبما شرحناه.

يقول الشيخ المفيد في المكان نفسه:

> ويؤكّد ذلك ما أجمع عليه أهل النقل من العامة والخاصة، ورواه أصحاب الحديث عن رجالهم الثّقاة، من أنّ رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله سُئل، فقيل له: ما تقول في عمّك أبي‌طالب يا رسول الله وترجو له؟ فقال‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: أرجو له كل خير من ربّي.

فلولا أنه‌عليه‌السلام مات على الإيمان لما جاز من رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله رجاء كل الخيرات له من الله عزّوجل، مع ما قطع تعالى به في القرآن وعلى لسان من خلود الكفار في النار وحرمان الله لهم سائر الخيرات وتأييدهم في العذاب، على وجه الاستحقاق والهوان.[۲۸]

وهكذا يثبت أنّ أبا طالب وزوجته فاطمة بنت أسد قد أسلما وَحَسُن إسلامهما.

وإن كان يذكر أنّ أبا طالب ظلّ يتكتّم في إيمانه أمام قريش، حتى يبقي على إمكانية الحوار معهم والوساطة بينهم وبين رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله وإلاّ لكانت قريش استطاعت أن تحاربه علناً، وتسحب بساط الزعامة من تحت قدمَيه؛ لأنه يصبح شريكاً مع النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله سلم في تسفيه أحلامهم والاستهزاء بآلهتهم. وبهذا كما بغيره من الدلائل يبطل ادّعاء تكفير أبي‌طالب‌عليه‌السلام، كما دأب عليه البعض دون حجّة وبرهان.

خاتمة وتوصيات

كما رأينا في هذه الدّراسة السّريعة، أنّ أبا طالب‌عليه‌السلام، ما هو إلا رجل مؤمن قوي الإيمان، شديد البأس والقوة، رحيم بالضعفاء والمساكين، قام بكفالة محمّد رسول الله، صبياً شاباً، تعهد برعايته حتى بعثه الله رسولاً للإنسانية جمعاء، وما كان يمكن لرجل غير مؤمن أن يدافع بقوة مثل قوة الحق عند أبي‌طالب والمفترض أن المسلمين يعرفون قيمة أبي‌طالب، وعليهم أن ينصروا سيرته التي شوّهها المستبدّون طوال التاريخ حتى رسخت في ضمائر أغلب أبناء الأمة.

ولا يحتاج أبوطالب لنا، ولكننا نحتاج إليه، إلى إيمانه وقيمته الإنسانية وإلى سيرة حياته؛ لأنّ سيرة حياة أبي‌طالب تلهم الأمة في العمل على وحدتها، ومحاربة فكر التكفير والاستبداد السياسي أيضاً،

---

۲۸. موقع عربي مقالات، http://qadatona.org.

بصورة إيمانية مثالية كاملة، فالأمة بأسرها تحتاج لمنهج إيماني نبوي محمّدي رسالي، يوحّد الشعوب الإسلامية، ويستلهم فكرها الرسالي فيحارب التكفيريين الذين شوّهوا الدين أكثر من أي عدو أو مستشرق أو صهيوني.

إن كان «الإرهاب» هو العرض لمرض الأمة، فإنّ «التطرف الديني» (أو الفكري) هو المرض الحقيقي الذي علينا أن نواجهه إن أردنا علاج المشكلة بصورة فعالة. وذلك بالطبع لا يقلّل على الإطلاق من ضرورة بل وحتمية المواجهة المسلحة والأمنية للمشكلة خاصة مع الإرهابيين المسلحين. إنّ حلّ مشكلة التطرف الإسلامي على المستوى الفكري، يحتاج إلى إستراتيجية كاملة تعمل على الأقل من خلال عدّة محاور رئيسية.

والمحور أو البعد الأول في علاج هذه المشكلة هو إيجاد مفهوم ديني بديل يدعو حقاً للسّلام والتّسامح والمحبّة، انطلاقاً من رؤية وموقف أبي طالب كنموذج، الذي لم يخش البأس القرشي، حافظ على إيمانه، ودافع عن النبي والدعوة حتى مات (رضوان‌الله‌تعالى‌عليه).

فالمفاهيم الدينية الحالية والتي تهيمن على الفكر الإسلامي للأسف الشديد تُكرِّس العنف والغلّ والكراهية وتشعل نيران التطرف الديني.

أمّا المحور الثاني في علاج المشكلة فيكمن في تبنّي وسائل تعليمية فعّالة لمواجهة طرق التفكير البشرية الداعية للتطرف، مثل النظرة المطلقة للأشياء والحرفية في الفهم وإصدار الأحكام على الآخرين، وهذه ثلاثة أمثلة من العديد من «طرق التفكير» التي تتسبّب في التطرّف وكراهية الآخر بغضّ النّظر عن المفاهيم الدينية والعقائدية.

أمّا العامل الثالث في مواجهة التطرف الديني فهو مواجهة العوامل النفسية المصاحبة للتطرف الديني مثل كراهية الآخر، وإماتة (أو إحباط) الضمير البشري، والتعوّد على (أو قبول) العنف كوسيلة للتعامل مع الآخرين. وهذه المواجهة تحتاج إلى وسائل متعدّدة موجهة لعلاج هذه النقاط بعينها، وتتمّ من خلال المدارس أو من خلال وسائل الإعلام المختلفة. وأهم علاج هو الإعلاء من شأن النماذج الإسلامية، مثل نموذج أبي طالب، لا في الدفاع عن الدعوة فقط، ولكن لنشر الفكر المتسامح المحب للغير، ومن خلال وسال الإعلام المرئية والمقروءة.

سلام على أبي‌طالب عليه السلام في الأوّلين والآخرين.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. أبوطالب مؤمن قريش، عبدالله الخنيزي، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، ١٩٧٨م.

٣. إيمان أبي‌طالب و الشذرات الذهبية، لبيب بيضون، مقدمة: المحقق الشيخ محمّد حسن آل ياسين، لرسالة محمّد بن محمّد بن النعمان بن عبدالسّلام الحارثي المذحجي العكبري، المعروف بالمفيد، كنيته ابوعبد اللّه الشيخ المفيد، ١٩٩٨م.

٤. تاريخ الأمم و الملوك أو تاريخ الرسل والملوك، محمّد بن جرير الطبري، تحقيق العلامة المحقق: محمّد ابوالفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤م.

٥. تاريخ دمشق الكبير، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عساكر، دار الفكر، المكتبة الوقفية، ٢٠١٠م.

٦. السيرة النبوية، ابن‌هشام، القاهرة: دار الريان للنشر، ١٩٨٧م.

٧. شيخ الأبطح أو أبوطالب، السيد محمّد علي شرف الدين، مقدمة: العلاّمة الشيخ محمّد مهدي شمس‌الدين، صور، لبنان: دار الأرقم، ١٩٩٩م.

٨. فاطمة بنت أسد، الأميني، محمّد هادي، بيروت: مؤسسة البلاغ، ١٩٩٠م.

٩. الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، عزالدين أبي الحسن علي بن أبي‌الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٨٧م.

١٠. المسند، أحمد بن حنبل، مصر، القاهرة: دار الريان للنشر، ١٩٨٧م.

مقالات

١١. «إسلام طبقي روّج له المؤرخون»، علي أبوالخير، هند و وحشي، مقال في جريدة المقال المصرية، ٧ أكتوبر ٢٠١٦م.

١٢. «ضدّان لا يجتمعان»، علي ابوالخير، أبوطالب و أبو سفيان، جريدة المقال المصرية، ٩ فبراير ٢٠١٦م.

١٣. موقع عربي مقالات، بدون مؤلف، http://qadatona.org

١٤. موقع عربي مقالات، بدون مؤلف، http://qadatona .org